# شجرة عيد الميلاد

للكاتب الروسي : دستوفسكي

ترجمة : عبد المنعم جلال

شهدت اخيرا حفلة زواج ... او بالاحرى لا ... سوف احدثكم اولا عن شجرة عيد الميلاد فان حفلة الزواج التي شهدتها اخيرا كانت رائعة وقد اعجبتني كثيرا ولكن الحفلة الاولى كانت اروع وامتع ، وسوف ترون لماذا اعادت هذه الحفلة الى ذهني ذكرى شجرة عيد الميلاد .

كان ذلك منذ خمس سنوات تقريبا ... وقد دعيت الى حفلة اقيمت بمناسبة عيد الميلاد دعاني اليها رجل اعمال واسع الثروة والثراء كثير الاحباب والاصحاب بحيث ان تلك الحفلة التي اقاموها احتفالا بمولد طفل لم تكن غير سبب لاجتماع الاهل والاصحاب للتحدث والتشاور في المواضيع التي تهمهم حتى يبدو ان الحديث قد جاء صدفة واتفاقا .

ولما كنت بعيد الصلة عن كل ما يمت بالاعمال فقد قضيت لبثي في معزل عن هذه المشاورات ورحت اشغل نفسي بالنظر الى المدعوين ومراقبتهم ولهذا لم البث ان لاحظت مدعوا آخر كان مثلي يبدو كأنه كان في غير مكانه في هذه الحفلة ... كان رجلا طويل القامة هزيل الجسم صارم القسمات انيق الملبس ، وكان يبدو بعيدا عن المرح والبهجة لانه ما كاد ينسحب الى احد الاركان حتى تلاشت ابتسامته من على شفتيه وقطب حاجبيه العريضين بطريقة تدعو الى القلق .

وكان يبدو من هيئته انه لا يعرف احدا بالقاعة فيما عدا المضيف وانه عزم على ان يقوم بدور الرجل الشهيد على الرغم مما يحس به من ضجر .

وعلمت فيما بعد انه رجل ربيع دعته الى المدينة صفقة تجارية كبيرة . ولما كان يحمل رسالة توصية لصيقنا فقد اضفى عليه هذا الاخير سترا من حمايته ودعاه لحضور حفلة عيد الميلاد محاملة منه .

ولم يلعب المدعوون الورق ولم يقدم اليه احدهم سيجارا ولما لم يوجه اليه احد الحديث ( ولعلهم عرفوا الطير من ريشه ) فقد اضطر صاحبنا احتفاظا لوقاره الى ان يصقل شواربه ، وكان شكلهما جميلا حقا . وكان يفعل ذلك في جد ومثابرة حتى ان المرء ليظن ان الفودين قد وجدا اولا وان السيد مين بعد ذلك للاشراف على صقلهما .

وفيما عدا ذلك الرجل الذي شارك بهذه الطريقة جعل مضيفنا صاحب الاطفال الخمسة تحول انتباهي الى سيد آخر .

كان ذلك السيد موظفا كبيرا اسمه جوليان مستاكوفيتش ، وقد لاحظت ان الجميع كانوا يعاملونه في احترام كبير كما لو كانوا يعرفون انه ذا مكانة مرموقة وكان مضيفنا نفسه يعامله بنفس المودة التي يعامل بها السيد ذا الفودين .

وقد احاطه اصحاب البيت بكل مودة واكرام واعتنوا به عناية فائقة فقدموا اليه الشراب كما قدموه الى أغلب المدعوين ولاحظت ان مضيفنا تبدت عيناه بدموع الفرح عندما ذكر جوليان مستاكوفيتش في نهاية الحفلة بانه قط لم يستمتع في حياته بوقت طيب كما استمتع في تلك الليلة .

ويسعني ان اعترف بانني احسست برهبة كبيرة عندما رأيت نفسي وحدي مع ذلك الموظف المرموق . ولهذا ما ان ابديت اعجابي بالاطفال حتى انسحبت الى ركن من الصالون الصغير ولجأت خلف مجموعة من الاشجار اقيمت في منتصف القاعة .

اما الاطفال فقد ضربوا عرض الحائط بنصائح مربياتهم وتوصياتهم وبدوا لي طرفاء . وفي بضع دقائق نزعوا من الشجرة كلها ما عليها من حلوى وفاكهة ثم تحولوا الى اللعب واجتهدوا في تكسيرها حتى قبل ان يعرفوا لي كل لعبة منها .

واقبل طفل صغير ذو شعر مصقول وعينين فاتنتي الجمال فطاردني حتى محبتي وقد استقر منه العزم على ان يقتلني بمدفعيته الخشبية . اما التي نالت اهتمامي اكثر من غيره فهي اخته وتبلغ من العمر احدى عشرة سنة وكانت جميلة رائعة الجمال ، ساحرة شاحبة ، ذات عينين واسعتين حالمتين . ولا ريب ان احد الصبية أهانها لانها لجأت الى الصالون الصغير الذي لجأت اليه وجلست في ركن منه لا يشغلها شيء غير عروستها وكنت قد سمعت بعضا من المدعوين يقولون ان اباها تاجر غني وآخرين يقولون انه سوف يكون لها ثلاثمائة الف روبل مهرا . واذ كنت

انظر الى الجماعة التي يدور بينها هذا الحديث وقعت عيناي على جولسان مساكوفتش ، وكان واقفا عاقدا يديه خلف ظهره ومال راسه الى جانبه وراح يصغي الى ثرثرة الناس في اهتمام شديد .

وفيما بعد ، لم يسعني الا ان ابدي اعجابي بحكمة المفتش فيما يتعلق بتوزيع هدايا الاطفال فالطفلة ، صاحبة الثلاثمائة الف روبل منحت اجمل عروسة في المجموعة كلها . وهكذا كانت اللعبة تقل قيمتها نظرا لدرجة واهمية اهل الطفل المالية . وكان آخر السعداء طفل في العاشرة من عمره نحيف اشقر اللون يملأ وجهه النمش فقد منح كتابا صغيرا رخيصا يتكلم عن عظمة الطبيعة والدموع والحنان ولا تتضمن صفحاته صورة واحدة .

ولم يمض وقت طويل حتى علمت ان الطفل الصغير هو ابن مدرسة الاطفال المصيف وهي ارمل مسكينة ليس لها غير هذا الطفل الاحمق الهلوع .

وكان يرتدي جلبابا عاديا من القطن الاصفر وعندما اخذ هديته راح يتسكع طويلا حول اللعب الاخرى ، وكانت عيناه تتطفلان بالرغبة في مشاركة الاطفال الآخرين لهوهم ومرحهم ولكنه لم يجرؤ على ذلك وهو يعرف بلا شك مركزه منهم .

وانا احب كثيرا ملاحظة الاولاد واجد اغرب ما فيهم هي البوادر الاولى ممارستهم حياتهم الحرة . وهكذا لاحظت ان الصبي الاشقر قد اخذه الحماس عند رؤيته بقية اللعب المقرر توزيعها على بقية الاولاد وعندما وقعت عيناه خاصة على المسرح اذ كان يريد ان يقوم بدور صغير اندمج مع اترابه من الاطفال فاعطى تفاحته لطفل سمين يمسك منديلا مملوءا بالحلوى ثم لم يرفض فيما بعد ان يكون مطية لاحد زملائه وكل ذلك حتى لا يبتعد عن جوار المسرح . ولكن على الرغم من كل ذلك لم يسلم من لكمات طفل اكبر منه ، وعلى الرغم من ذلك لم يجرؤ حتى على البكاء لان امه اقبلت في هذه اللحظة وهرته حتى لا يحول بين الاولاد وبين لهوهم . وبعد وقفة طويلة بالباب لحق بالطفلة الصغيرة . وكانت الطفلة طيبة القلب كريمة الخلق فلم تطرده وراح الاثنان يتعاونان في حماس في الباس العروس ثيابها .

كنت في مكاني خلف الاشجار اشغل نفسي بالاستماع الى حديث الصبي والطفلة صاحبة الثلاثمائة الف روبل

عندما رأيت جوليان مستاكوفيتش يدخل فجأة . وقد انهو هذا الاخير معركة دارت بين الاطفال في الصالون الكبير فاسرع هو الآخر الى الصالون الصغير. وكنت قد رأيته قبل ذلك يتحدث طويلا مع المصيف ، وكان يبدو حالما وهو يعد على اصابعه قائلا :

ـ ثلاثمائة ... ثلاثمائة ... احدى عشرة سنة ... اثنى عشر ... ثلاثة عشر ... ستة عشر ، اى بعد خمس سنوات ... لنفرض ٤٪ ـ ١٫٠٥ شهرا لنفرض ان هذه الثروة تصبح بعد خمس سنوات اربعمائة الف روبل ... نعم ... نعم ولكن هذا الوعد لا يفرض بفائدة ٤٪ طبعا ... لنقل خمسمائة الف روبل على اقل تقدير.

واذ فرغ من هذه العملية الحسابية وهم بمغادرة الغرفة وقعت عيناه فجاة على الطفلة . وكنت انا من غير شك مختفيا خلف الاشجار لانه لم يرني . ولكني رايت الانفعال يبدو على محياه ... اكان ذلك نتيجة العملية الحسابية او بسبب شيء آخر ... وفرك يديه في ارتياح ونظر الى الخطيبة المقبلة نظرة اخرى زادت من ارتياكه وانفعاله.

وقبل ان يتقدم من المكان الذي جلس فيه الصبيان نظر حوله نظرة سريعة ثم تقدم على اطراف قدميه كما لو كان قد احس انه مخطىء . واقترب جوليان مستاكوفيتش من الطفلين وعلى شفتيه ابتسامة خفيفة وانحنى فطبع قبلة رقيقة على راس الطفلة .

ولم تكن هذه تتوقع مثل هذا الجرم المفاجيء فاطلقت صيحة تدل على الدهشة وقال هو :

ـ ماذا تفعلين هنا ايتها العزيزة الصغيرة .

وبسط يده وربت على خد الطفلة التي احاطته قائلة :

ـ انا نلعب .

والقى جوليان مستاكوفيتش الى الصبي نظرة بعيدة عن كل رقة وقال :

ـ معه ؟ .

ثم التفت الى الصبي وقال في حدة.

ـ ينبغي ان تذهب الى الصالون الآخر يا صغيري .

واذ راى الصبي واقفا لا يريم ولا يحول بصره عنه دار بعينيه في انحاء الغرفة فاحصا ثم انحنى فوق الطفلة وقال :

ـ اهذه التي معك عروسة يامزيزتي الصغيرة ؟ .

فاجابته الطفلة وقد ظهر عليها الارتباك ...

ـ نعم . عروسة .

ـ وهل تعرفين يا مزيزتي الصغيرة من صنعت ؟

ـ فقالت وهي مطرقة براسها : ـ لا . لا اعرف .

ـ من الحرير يا مزيزتي الصغيرة .

ونظر جوليان مستاكوفيتش الى الصبي نظرة صارمة وقال له .

ولكن الطفلة صاحت من خلال دموعها

ـ لا ... لا ينبغي ان يذهب ... بل اذهب انت ... دعه ... دعه وشانه .

وصدرت بالباب حركة جعلت جوليان مستاكوفيتش ينتفض ويعتدل على الفور . وكان خوف الصبي أشد وهو يحاول بلوغ الباب وهو يتسلل في هدوء ويتمسح بالجدار ورأى الموظف الكبير أن يغادر الصالون هو الآخر منعا للشبهات، وكان لونه شديد الاحمرار. ونظر الى صورته في المرآة وهو يجتاز الغرفة وبدا عليه الارتباك ... هل أحس بالخجل لتسرعه ؟ ... لعل الحسنة التي قام بها على أصدقائه قد أغرته وجعلته ينصرف تصرف الاطفال محاولا الدنو من موضوع أحلامه الذي لا يمكن ان يصبح حقيقة الا بعد خمس سنوات.

وتبعت الموظف حتى صالة الطعام حيث رأيت منظرا مضحكا ، فان جوليان مستاكوفيتش ، وقد زاد احمرار وجهه لفرط غضبه راح يحاول اقراع الصبي الذي لم يعد يعرف اين يذهب .

ـ ماذا تفعل هنا أيها الشقي ؟... اذهب ، اذهب أيها الوغد . انك تسرق العاكهة... اخرج ... اغرب عن وجهي أيها المجرم ... قلت لك اذهب .

واقدم الصبي المذعور على عمل يائس فاختبأ تحت المائدة ولكن الموظف أخرج منديله من جيبه وراح يهزه تحت المائدة وهو يحاول أن يصل الى الصبي .

وهنا ينبغي أن نلاحظ أن جوليان مستاكوفيتش كان رجلا قوي البنية

ـ ينبغي أن تذهب لتلعب مع زملائك.

ولكن الصبي لم يشأ أن يبتعد عن صاحبه بل ازداد دنوا منها حتى كادا يتلاصقان وتحول جوليان مستاكوفيتش الى الطفلة وسألها .

ـ وهل تعلمين لماذا قدموا اليك هذه العروسة ؟ .

ـ كلا .

ـ ذلك لانك طفلة رقيقة ... لطيفة.

ونطق الموظف الكبير بهذه الكلمات وهو لا يستطيع أن يخفي انفعاله ونظر حوله متوجسا ثم خافت صوته الذي ازداد اضطرابا وقال :

ـ هل تحبينني يا عزيزتي الصغيرة اذا انا دعوت لزيارة أبويك ؟ وأراد جوليان مستاكوفيتش ان يقبل الطفلة مرة أخرى ولكن الصبي عندما رأى ذلك اجهش بالبكاء وشدها من ذراعها وراح ينتحب كما لو كان مشفقا عليها ...

واصطبغ وجه جوليان مستاكوفيتش بحمرة الغضب وصاح محنقا :

ـ اخرج من هنا أيها الشقي ... اذهب والعب مع زملائك .

احمر الوجه قصير القامة ذا كرش مستدير قائم على قدمين سمينين .

وتصعد وجهه بالعرق وكاد يختنق وهو يتحرك ويكثر من التحرك بدون نتيجة واخيرا اخذه الحمق واستولى عليه الغضب ، ومن يدري ، لعله كان شعورا بالغيرة .

ولم املك نفسي فاطلقت ضحكة كبيرة واعتدل جوليان مستاكوفيتش عندئذ ونظر الي في ارتباك ظاهر وسبي وقاره وراد الطين بلة ان ظهر مصيفنا بالباب. وخرج الصبي من تحت المائدة وراح ينفض ركبتيه .اما جوليان مستاكوفيتش فقد سارع برفع سديله الى اعلى ليخفي انفعاله .

ودهش المصيف عندما وقع بصره علينا ونحن في هذا الموقف الغريب وبدا عليه الارتياح ولكنه كرميت عليم بامور الحياة انتهز على الفور هذه الفرصة التي تقربه من الموظف وقال وهو يشير الى الصبي الاشقر .

ـ هذا هو الصبي الصغير الذي حدثتك عنه .

فقال جوليان مستاكوفيتش ، ولم يكن قد تغلب على انفعاله بعد .

ـ آه ... آه ...

واستطرد المصيف في التماس : ـ انه ابن المدرسة التي تشرف على تعليم اولادي وهي ارمل مسكينة مات زوجها وليس لها معين . وهذا هو السبب ياجوليان مستاكوفيتش فاذا كان في مقدورك ....

فقاطعه الرجل القصير البادن على الفور وقال : ـ آه كلا ... كلا ... معذرة يا فيليب الكسفيتش...هذا غير ممكن ...لقد استغللت عنه وليس هناك مكان ما ... وعلى فرض أن هناك مكانا فهناك ايضا عشرة مرشحين احق منه ... آسف ... آسف جدا .

فقال المصيف : هذا شيء يؤسف له ... انه صبي طريف صموت ومطيع.

فقال جوليان مستاكوفيتش وقد رسم ما بين شفتيه :

ـ بل شقي صغير ... اذهب ... اما زلت واقفا... اذهب الى ملائك.

ولم يستطع ذلك الموظف الكبير المرموق ان يتمالك نفسه فارسل الى نظرة دقيقة . اما انا فقد رأيت أن من المستحيل ان ابدو بمظهر غير المكترث فارسلت ضحكة كبيرة وانا احدق في الموظف الذي تحول الى المصيف ليناله طبعا عمن اكون ...

وتمتم المصيف ببضع كلمات ثم انصرف الرجلان .

وعدت بدوري الى الصالون . كان الرجل الثري واقفا في حلقة من المصيف والمدعوين يتحدثون جميعهم الى سيدة امسكت في يدها بيد الطفلة الصغيرة التي وقع معها ما تقدم ذكره مع الموظف.

وكان الموظف المرموق نفسه واقفا

يمدح جمال الصبية ويطري اخلاقها وتربيتها العالية وراحت الام تصغي الى كلماته والدموع تكاد تطفر من عينيها ورايت ايضا ان شعني الاب احتلتنا في ابتسامة حافلة بالانفعال بينما لم يستطع المصيف ان يخفي السرور الذي سببته له هذه الكلمات . وانضم المدعوون انفسهم الى الحديث وانقطع الاطفال عن اللعب حتى يصغو الجو للحديث .

وسمعت الام توجه الدعوة في انفعال الى الرجل الثري وترجوه ان يشرف بيتهم بصداقته العالية . وقبل الثري الدعوة وكذلك فعلها جوليان مستاكوفيتش وهو لا يتمالك نفسه من الانفعال . وراح الجميع يمتدحون المصيف وزوجته والتاجر الثري والام وابنتها الصغيرة وخاصة جوليان مستاكوفيتش .

والتفت انا الى احد المدعوين وقلت اساله .

ـ هل هذا الرجل متزوج ؟

وسمع الرجل الذين سؤالي فرشقني بنظرة قاتلة واجابني جافة في استياء وقد اعتبر سؤالي مقرضا وفي غير موضعه .

ـ كلا .

ومنذ ايام كنت مارا امام الكنيسة عندما لفت نظري جمع غفير من الناس وحشد من العربات وسمعتهم يتحدثون عن زواج وشيك الوقوع . كان اليوم كئيبا والثلج يتساقط رذاذا ودفعني الفضول فدخلت الى المحراب واخذت ابحث عن الزوج فرايته رجلا قصيرا ممتلىء الجسم نادر الكرش يحمل على صدره عدة نياشين وكان يجري في انفعال يصدر الاوامر هنا وهناك . واخيرا سمعت همسا بين الحاضرين ادركت منه ان العروس قد اقبلت .

وتدافعت بالمناكب حتى بلغت الصف الاول ووقعت عيناي على فتاة رائعة الجمال في فجر ربيعها . وكانت شاحبة، حزينة تتقل عينيها بين جموع الحاضرين، وقد خيل الي ان هاتين العينين قد اصطرمتا من فرط البكاء . وكانت تقية الملامح ذات مهابة ووقار ولكن كان يتخلل هذا الوقار وتلك المهابة شيء صبياني ساذج كان يبدو كما لو كان يسأل الموجودين الرحمة .

وايقظت هذه النظرة في نفسي ذكريات مبهمة . ودققت النظر الى الخطيب وما كدت افعل حتى عرفت فيه فجاة ذلك الشهم جوليان مستاكوفيتش ، وكنت لم اره منذ خمس سنوات وعدت انظر الى الفتاة من جديد و ... يا الهي ... ومن غير ان احاول رؤية المزيد اسرعت الى الباب تلاحقني كلمات المدعوين .

ـ ان العروس تملك مهرا قدره خمسمائة الف روبل .

وعندما خرجت الى الشارع تمتمت اقول :

اذن فقد كان حسابه مضبوطا .